١٢ - معهـــد باستير بباريس

أنهك العمل المستمر قوى باستير وأضناه ، على أنه بالرغم من مرضه وضعفه ، كان يذهب كل يوم فى سنة ١٨٨٨ للاشراف على معالجة المصابين بالكلب والوقوف على أنبائهم ، وكان شديد الاهتمام أيضا بمعهده ، الذى كان يشيد فى ذلك الوقت على أرض مساحتها ١١٠٠٠ متراً مربعا فى شارع ديتو . وقد اشتركت فى التمويل له مع حكومة فرنسا وشعبها حكومات بعض الممالك الأخرى وشعوبها . وبلغ مجموع الاكتتاب العام الذى عمل من أجل ذلك ٢٥٨٦٦٨٠ فرنكا ، صرف منها على الأثاث والبناء ١٥٦٣٧٨٦ فرنكا ، واحتفظ بالباقى للصرف من ريعه على المعهد .

وتم تشييد المعهد فى اكتوبر ســـنة ١٨٨٨ ، وعُين يوم ١٤ / ١١ / ١٨٨٨ لحفلة الافتتاح ، وقد حضرها رئيس الجمهورية وألقيت فيها خطب مناسبة للمقام ، دارت كلها حول الاشادة بفضل باستير وعبقريته ، وما قام به فى خدمة الانسانية من جهود .

ولما جاء دور باستير للكلام لم يتمالك أن يخطب ، فعهد إلى ابنه فى قراءة خطابه . فبدأه بنبذة موجزة عن جهود فرنسا فى سبيل

التعليم ، ثم أشار إلى ما لقى من التشجيع والتعضيد فى سبيل اتمام بحوثه وإنشاء المعهد . ثم قال : —

« وكم يحزننى أن أدخله رجلا غلبه الزمن ، وليس حوله واحد من أساتذته أو رفقائه فى الجهاد ، فإذا كان ليس من الممكن أن أسمعهم اعترافى بما لهم على من فضل النصح والتعضيد وإذا شعرت بالحزن العميق منذ موتهم ، فان لى تعزية وسلوى عند ما أفكر فى أن ذلك الذى دافعنا عنه سويا باق على الدوام » .

ثم نصح زملاءه ومساعديه بالاستمرار فى العمل بجد ونشاط ، وألا يتسرعوا فى عمل من الأعمال ، وأن يعملوا لرفعة بلادهم والذود عنها .

وختم خطابه بكلمة وجهها إلى رئيس الجمهورية فقال : —

« إذا جاز لى ياسيدى الرئيس أن أختم خطابى ببعض آراء فلسفية ، أثارها فىّ حضوركم اليوم فى هـــذه القاعة ، لقلت إنه يخيـل إلىّ أن نزاعا يقوم اليوم بين عاملين قويين . فهناك رسالة الدم والموت ، والقائمون بهـا يتخيلون كل يوم طرقا جديدة للقتـال والفتك بالانسانيـة ، فيضطر الشعب أن يكون مستعداً على الدوام للذهاب إلى ساحـة الوغى . وهناك على نقيض ذلك رسالة السـلام والأمن ، وليس للقائمين بهـذه الرسالة مطمح إلا تخليص العـالم من الشرور التى تهـــدده . والرسالة الأولى غايتها

الفتوحات فتضحى بمئات وآلاف من النفوس من أجل شخص واحد ، أما الرسالة الثانية فتفضل روحا بشرية واحدة على جميع الانتصارات مهما عظمت . والرسالة التى نعمل لها تسعى وراء شفاء تلك الجروح الدامية . وربنا وحـــده هو الذى يعلم أى الرسالتين ستكون لها الغلبة فى النهاية ، ولكن الذى يمكن أن نؤكده هو أن العلم الفرنسى سيبذل كل جهد مستطاع فى سبيل خدمة الانسانية ، فيعمل بذلك على توسيع حدود الحياة وامتدادها » .

* * *

وهـــذا المعهد ، الذى كانت نواته فيما تبرع به قيصر الروسيا لباستير ، قد ازداد اتساعا على مر الأيام ، وأنشىء من أمثاله كثير فى فرنسا وفى البلدان الأخرى فى جميع أنحاء المعمورة . ولقد كان الغرض الأساسى منه فى بادىء الأمر تحضير اللقاح اللازم لمعالجة السعور ، ولكن نطاق أعماله اتسع فصار معهدا كبيرا للتعليم والبحوث المختلفة فى نواحى الطب والكيمياء يُحج إليه من جميع الأقطار ، إذ قامت على إدارته بعد باستير جيلا بعد جيل جماعات من تلاميذه العبقريين ومن أخذ عنهم .

وقد قام المعهد لفرنسا والعالم أجمع بخدمات عظيمة جليلة الشأن ، خففت كثيراً من ويلات الانسانية ، وأنقذت الملايين من البشر ، وعدداً كبيراً من الحيوانات البائسة . وقد تجلت هذه

الخدمات ، بمقدار واسع النطاق ، ابان الحرب العظمى الماضية .

ولقد حافظ تلاميذ باستير وأتباعهم على الأمانة من بعده ، واستمروا فى حمل المشعل الذى كان يحمله ، فعم نفعه ونوره أنحاء المعمورة . فكان منهم البحاثون العظام ، وكان منهم الذين كشفوا عن أسباب أمراض كثيرة وبيلة ، وتوصلوا إلى ايجاد طرق لعلاجها والوقاية منها . وقد ساروا جميعاً على نهج أستاذهم الأكبر باستير ، وهم يرون من التشريف أن يُدعَوا بالباستيريين .

وانه ليضيق المقام عن تفصيل القول فيما قامت به هذه الجماعة ، فى حياة باستير وبعد وفاته ، من أعمال عظيمة عادت على الانسانية بالخير . لذلك نكتفى بذكر أسماء بعض أفراد هذه الجماعة ، مع اشارة موجزة إلى ما قاموا به .

فمنهم ديكلو Duclaux ورو وشمبرلاند ، ونضيف إلى ماسبق قوله عنهم أن رو قد وفق فى السنوات الأخيرة لباستير إلى كشف سم ميكروب الدفتريا ، كما وفق إلى طريقة لتحضير المصل الواقى من هذا المرض الوبيل ، ومنهم أيضاً متشينكوف Metchnikoff الروسى الذى حضر إلى المعهد وتتلمذ على باستير ، وله فى المناعة وإطالة الحياة بحوث . ومنهم يرسين Yersin الذى وفق إلى كشف ميكروب الطاعون وكيفية العدوى به والوقاية

منه . ومنهم كالمت Calmette وله بحوث قيمة فى السل وفى الطب التجريبى ، وهو الذى أتقن تحضير التيوبركلين المستخدمة فى تشخيص السل وعلاجه . ومنهم فيـــدال Widal وهو صاحب الاختبار الذى يعرف باسمه للكشف عن ميكروب الحمى التيفودية . وغير هؤلاء كثيرون (١) .

١٣ ـ الاحتفال بالعيد السبعينى لباستير

لقد كان يوم ٢٧ / ١٢ / ١٨٩٢ يوما مشهودا ، إذ اجتمع فى المدرج الكبير بالسوربون مندوبو فرنسا والدول الأخرى وأعضاء

---

(١) بعد الاحتفال بالعيد السبعينى لباستير بقليل وصله الخطاب التالى من « والدة » —

« سيدى لقد قمت بأجل ما يمكن أن يقوم به رجل على سطح الأرض ، وإذا أنت أردت فانك تستطيع حتما الوصول إلى طريقة لمعالجة مرض الدفتريا الذى يفتك بأطفالنا . وان هؤلاء الأطفال الذين نلقنهم اسمك . وتعلمهم انك أكبر محسن ، يطالبون بحقهم فى الحياة ، وكان لهـــذا الخطاب تأثير كبير فى نفس باستير ، فتمنى أن يقوى على العمل ، وأن تطول حياته ، وأن يتمكن من إجابة هـــذا النداء . ولكنه لم يضع وقتا فى الأمانى وأخذ الدكتور رو العبء العملى عنه . وكان ميكروب الدفتريا معروفا وقد فصله المانى يدعى لوفلر ، وكان معروفا أيضا ان هذا الميكروب يستقر مكان الاصابة فى الزور ولا يسرى سمه فى الدم ، فتمكن رو من كشف سم هذا الميكروب . وجاء المانى آخر هو بهرنج من تلاميذ كوخ فكشف عن المصل المضاد لهذا السم . ثم جاء دور رو مرة ثانية فوفق إلى الطريقة التى يحضر بها هذا المصل الواقى بمقادير كبيرة .